رد على مقال :

الرحلات العربية

للأستاذ محمد محمود رضوان

قرأت المقال الممتع الطريف الذى كتبه الأستاذ الشاعر محمد عبد الغنى حسن بالعدد ٤١٠ من الرسالة وأتى فيه على تاريخ الرحلات العربية . ولعل الأستاذ يفسح لنا صدره فنأخذ عليه بعض مآخذ لا تنقص من مقاله القيم

حاول الأستاذ أن يستقصى فى مقاله جميع أنواع الرحلات التى نعرفها للعرب فوُفق كثيراً حيث ذكر الرحلات الاضطرارية كرحلة القحطانيين ، والتجارية كرحلة الشتاء والصيف لقريش ، والدينية كهجرة المسلمين إلى الحبشة وإلى المدينة ، والسياسية كرحلات المسلمين إلى المدن المفتوحة ، ورحلات الاستجداء كرحلة جرير وأبى نواس ، وأخيراً (الرحلات لذاتها ولم تبدأ إلا فى القرن الرابع الهجرى) كرحلة المسعودى والبيرونى والمقدسى وابن جبير والمغربى وياقوت الخ

وعجبى للأستاذ محمد عبد الغنى أن ينسى ضرباً من الرحلات هو فى نظرى أهم ضروبها ، وأجدرها بالدراسة لأنه أجلها أثراً وأجلها خطراً فى العلم والأدب ، وأعنى به (الرحلة فى طلب العلم)

وأعجب من هذا أن ينسى الأستاذ الكاتب نفسه وهو قد رحل فى طلب العلم . وليته قرأ ابن خلدون يقول : (إن الرحلة فى طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال فى التعلم)

ولقد عرف العرب لرحلات العلم قيمتها فكانوا يتنقلون فى مشارق الأرض ومغاربها للقاء الشيوخ ، ويرحلون إلى البادية لتَعْضَرَى مقاولهم بالفصاحة ، ويتحملون فى سبيل العلم من بعد الشقة وقلة الزاد ووحشة الطريق ورهق السفر ما الله به عليم

ذكر ابن خلكان أن الخطيب أبا زكريا التبرزي شارح ديوان الحماسة ، والقصائد العشر (٤٢١ — ٥٠٢) وقعتْ له نسخةٌ من كتاب التهذيب للأزهرى فى عدة مجلدات يُعوزُ بعضَ مسائلها شىء من التحرير ، فسأل عمن يقوم بذلك فدلوه على أبى العلاء ... فماذا يصنع الرجل والشقة بعيدة وهو فقير لا يملك أجرة دابة تحمله ؟ لقد وضع الكتاب فى حقيبة وحملها على ظهره وسافر من تبريز إلى المعرة مشياً على قدميه حتى بلغها وقد قطع نحو سبعمائة ميل ثم أخرج الكتاب فوجد العرق قد نفذ إليه فأفسد منه ما أفسد

والأندلس العربية ، لقد كانت كعبة القاصدين من أهل المشرق كما كان المشرق نجعة الرائدين من أهلها طالبين العلم ، والعلامة المقرى صاحب كتاب (نفح الطيب) يسهب فى كتابه إسهاباً ، ويُطنب إطناباً ، حين يتعرض لذكر الذين رحلوا من الأندلس إلى المشرق يطلبون العلم ويتنافسون فيه المشارقة

وكتب التراجم كوفيات الأعيان ومعجم الأدباء وطبقات الأطباء وتاريخ الحكماء تؤرخ لألوف من العرب رحلوا يطلبون العلم (ولو فى الصين) ، لا يعوقهم الإملاق عن شهود محافِلِه ، ولا تحلئهم المشاق عن ورود مناهله

ولقد كتبتُ فصلاً مسهباً عن (رحلات العرب فى طلب العلم) من فصول كتاب أشتغلُ جاداً بوضعه عن (المسلمون والتربية) عسى أن يكون الفراغ منه قريباً

وللأستاذ شرف الدين خطاب المفتش بوزارة المعارف فصل موجز فى هذا الموضوع فى كتابه (التربية فى العصور الوسطى) الذى يدرس فى دار العلوم ، فراجعه إن شئت

* * *

نعود لناحية أخرى نعتقد أن الأستاذ عبد الغنى تجنى فيها على شعراء العربية ، وذلك حيث قال عنهم : « ولكن واحداً منهم لم يفكر فى تدوين رحلة أو تسجيل مشاهدة » ، وحيث قال : « وإذا كانت هذه الرحلات الفردية وكثير غيرها قد أضافت بعض الثروة إلى الأدب إلا أنها لم تكن منتجة بالنسبة للرحلات والأسفار ، فهى عقيمٌ كل العقم من هذه الناحية »

فلقد عرفنا لكثير من شعراء العربية الرحّالين شعراً رائعاً يصفون فيه رحلاتهم ليس هذا موضع الإفاضة فيه ، ولكنى أمثل بالبحترى وقصيدته فى وصف إيوان كسرى التى ضمنها وصف رحلته ومشاهداته ، وأمثّل بأبى الطيب المتنبى الذى تقلب ما بين دمشق وحلب ولبنان وفارس ومصر وشهد غزوات سيف الدولة فضمّن شعره الكثير مما شاهده ، فوصف بحيرة طبرية وشعب بوان وحمص وتُفاح لُبنان ، ووصف نساء الروم فى وقعة نهر (أرْسَناس) ، وليس فى إغفاله وصف آثار مصر ونيلها دليل على قصوره أو تقصيره فإن لذلك أسباباً لا تتعرض

لها فى هذه العُجْلة ، بل لقد كان لرحلته إلى مصر آثار كثيرة فى شعره ... أقلها أنه هجا المصريين

وابن هانىء الذى قال عنه الأستاذ (يخرج من الأندلس إلى شمال أفريقية فيمدح الخليفة المعز ويرحل معه إلى مصر ويصف هذه الرحلة فى بعض شعره) لقد ظلمه وتجنى عليه ، فالرجل لم يرحل مع المعز إلى مصر ولكنه رحل من الأندلس إلى عدوة المغرب فلقى جوهرا القائد ، ثم علم به المعز فقربه وأجرى عليه العطايا ؛ ثم رحل المعز إلى مصر فشيعه ابن هانىء ورجع إلى المغرب لأخذ عياله ، ثم مات قبل أن يلحق بالمعز . ولما بلغه خبر موته أسف وقال : « كنا نريد أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يقدر لنا ذلك »

ومع هذا فقد كان لرحلة ابن هانىء إلى المغرب أثرها فى شعره ، وقد وصف أسطول المعز وصفاً رائعاً بقصيدته المشهورة :

أما والجوارى المنشآت التى سَرَتْ
لقد ظاهرتْها عدةٌ وعديدُ

* * *

وبعد ففى مقال الأستاذ محمد عبد الغنى بعض هنات فى التعبير واللغة نرى لزاماً علينا أن نشير إليها ، ولا سيما أنه من المولعين بتعقب أمثالها

فهو أولاً ، يقول عن الرحالين من قريش إلى اليمن والشام : (وسنسميهم رحالين تجاوزاً) ، مع أن الله تعالى يقول : (رحلة الشتاء والصيف) فهل سماهم القرآن رحالين تجاوزاً ؟

وهو ثانياً يروى بيت الأعشى هكذا :

وشاهدنا الجُلّ والياسمين والمسمعات بأقصابها

وأظن الرواية الصحيحة للبيت (بقصابها) لا (بأقصابها) ، وقد جاء فى الأساس : « ونفخ فى القصّابة : فى المزمار ، ورأيت القُصّاب ينفخون فى القُصّاب : أى الزمارين ينفخون فى المزامير ، جمع قاصب الخ » . أما الأقصاب فهى الأمعاء

وقد روى البيت كما ذكرت العالم التونسى الجليل الأستاذ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور شيخ الإسلام المالكى فى تونس ، فى بحثه النفيس (الترداف فى اللغة العربية) المنشور بالجزء الرابع من مجلة المجمع اللغوى

وهو ثالثاً ... استعمل فى مقاله (ساهم) بمعنى (شارك) أو (كان له نصيب) ، والمساهمة هى المقارعة من (القرعة) كما فى قوله تعالى فى قصة يونس (فساهم فكان من المدحضين)[1] وكان يصيب لو قال : (أسهم) أو (سَهَم)

وقد نبه على هذا الخطأ أستاذنا الجليل العواصرى بك[2] . ولا حجة للدكتور زكى مبارك فى رده لأنه يستشهد بكلام المتأخرين ، ويرضى بأن يخطئ مع الشريف الرضى[3]

وهو رابعاً يقول : (ويعد كتابه الثانى أوفى مرجع عن بلاد الهند ، وأملأ كتب الأسفار تعريفاً بها)

والشذوذ كل الشذوذ فى (أملأ) ، لأن أفعل التفضيل — كفعل التعجب — لا يصاغ من الخماسى (امتلأ) على وزن أفعل . ولا يُقال إنه مصوغ من مَلأ ، لأنه كان عليه حينئذ أن يقول : « ويُعَد المؤلف أملأ المؤلفين لكتابه تعريفاً بالأسفار » لا أن يسند الملء للكتاب

نعم ، إن الأشمونى فى شرحه على الألفية وابن هشام فى أوضح المسالك ذكرا من الشذوذ قولهم : « ما أملأه للقربة » مصوغاً من امتلأ ؛ وهذا وهمٌ منهما لأنه لا شذوذ حينئذ فى العبارة ، إذ هو مصوغ من ملأ ... والمعنى جيد

وقد اعتذر لهما الصبان بأن الشذوذ يكون حين يقال : « ما أملأ القربة » ، كعبارة الأستاذ عبد الغنى

فهل يقوم هذا اعتذاراً له ؟

وهو خامساً يقول : « وإذا كانت هذه الرحلات الفردية وكثير غيرها قد أضافت بعض الثروة إلى الأدب ، إلا أنها لم تكن منتجة ... الخ »

وأنا لا أعلق على هذه العبارة إلا بأن أتحدّى الأستاذ بأن يُعربها ويبين لنا جواب إذاً ويخرّج هذا الاستثناء

ومنى إليه التحية

(حدائق القبة)

محمد محمود رضوان
المدرس بالمدرسة النموذجية

---

(١) راجع تفسير البيضاوى وغريب القرآن للسجستانى ص ٩٨

(٢) ص ٢٢٢ من العدد الرابع من مجلة المجمع

(٣) قال الأستاذ العواصرى مما قال : « وهناك معنى آخر لتساهم ؛ فى الأساس : « وتساهموا الفىء : تقاسموه » . وجاء الدكتور مبارك فى العدد ٣٧٨ من الرسالة يقول : « ثم عجبت كل العجب من غفلة بعض النقاد حين رأيت الزمخشرى نص عليها فى الأساس فقال : « وتساهموا الفىء : تقاسموه » اهـ . قلت : الخطأ هو ساهم بمعنى اشترك »